﴿ضل سعيهم﴾ ضاع وبطل وهم: الرهبان، عن علي رضي الله عنه كقوله: ﴿عاملة ناصبة﴾[1] وعن مجاهد: أهل الكتاب، وعن علي رضي الله عنه: أنّ ابن الكوّا سأله عنهم فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئًا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا﴾ فيزدرى بهم، ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيآت من الموحدين، وقرئ*: فلا يقيم بالياء.

فإن قُلْتَ: الذين ضل سعيهم في أي محل هو؟ قُلْتُ: الأوجه أن يكون في محل الرفع على هم الذين ضل سعيهم؛ لأنه جواب عن السؤال، ويجوز أن يكون نصبًا على الذم أو جرًا على البدل ﴿جهنم﴾ عطف بيان لقوله جزاؤهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾.

الحول: التحول. يقال: التحول: حال من مكانه حولاً كقولك: عادني حبها عودًا يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانهم وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه؛ ويجوز أن يراد نفي التحوّل وتأكيد الخلود.

المداد: اسم ما تمدّ به الدواة من الحبر، وما يمدّ به السراج من السليط، ويقال: السماد مداد الأرض، والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادًا لها والمراد بالبحر: الجنس ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد﴾ الكلمات ﴿ولو جئنا﴾ بمثل البحر مدادًا لنفد أيضًا والكلمات غير نافذة و ﴿مددًا﴾ تمييز كقولك: لي مثله رجلاً، والمدد مثل المدد وهو: ما يمد به، وعن ابن عباس رضي الله عنه: بمثله مدادًا وقرأ الأعرج: مددًا بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به، وقرئ*: ينفد بالياء، وقيل: قال حييّ بن أخطب في كتابكم: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[2] ثم تقرؤن: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[3] فنزلت يعني: أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾.

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، وقد فسرنا اللقاء، أو أفمن كان يخاف سوء لقائه.

والمراد بالنهي عن الإشراك بالعبادة أن لا يرائي بعمله وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصًا لا يخلط به غيره، وقيل: نزلت في جندب بن زهير، قال للنبي ﷺ: إني أعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرني فقال: «إنّ الله لا يقبل ما شورك فيه»[4]. وروي أنه قال: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»[5]. ونلك إذا قصد أن يقتدى به، وعنه ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء»[6].

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورًا من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نورًا من الأرض إلى السماء»[7]. وعنه ﷺ: «من قرأ عند مضجعه ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ كان له من مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكة، حشو نلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نورًا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو نلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ»[8]، والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة مريم مكية

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾.

﴿كهيعص﴾ قرأ بفتح الهاء وكسر الياء حمزة، وبكسرهما عاصم. وبضمهما الحسن، وقرأ الحسن: ذكر رحمة ربك أي: هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك، وقرئ*: نكر على الأمر. راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأنّ الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، وأخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة، أو أسره من مواليه الذين خافهم، أو خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعه تارات، واختلف في سن زكريا عليه السلام،

---

(1) سورة الغاشية، الآية: 3.

(2) سورة البقرة، الآية: 269.

(3) سورة الإسراء، الآية: 85.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 170.

(5) رواه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها (الحديث رقم: 375) والترمذي في كتاب: الزهد، باب: عمل = السر (الحديث رقم: 2384).

(6) رواه أحمد في مسنده 5/428، والبيهقي في الشعب، باب: في إخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء (الحديث رقم: 6831).

(7) رواه أحمد في مسنده 3/439.

(8) كشف الأستار، كتاب: الأنكار، باب ما يقرأ في الليل، (الحديث رقم: 3108).

فقيل: ستون، وخمس وستون، وسبعون وخمس وسبعون، وخمس وثمانون.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾.

قرئ: ﴿وهن﴾ بالحركات الثلاث وإنما ذكر العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته، ولأنه أشدّ ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشدّ ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصدًا إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها. إدغام السين في الشين عن أبي عمرو. شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو: الرأس وأخرج الشيب مميزًا، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. توسل إلى الله بما سلف له معه من الاستجابة. وعن بعضهم: أن محتاجًا سأله وقال: أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا، فقال: مرحبًا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته.

وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾.

كان مواليه وهم عصبته: إخوته وبنو عمه شرار بني إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبًا من صلبه صالحًا يقتدي به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه ﴿من ورائي﴾ بعد موتي، وقرأ ابن كثير: من وراي بالقصر وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى ولكن بمحذوف، أو بمعنى الولاية في الموالي أي: خفت فعل الموالي وهو: تبديلهم وسوى خلافتهم من ورائي، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي، وقرأ عثمان، ومحمد بن علي، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم: خفت الموالي من ورائي، وهذا على معنيين: أحدهما يكون ورائي بمعنى: خلفي وبعدي، فيتعلق الظرف بالموالي أي: قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه. والثاني: أن يكون بمعنى: قدامي فيتعلق بخفت، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد ﴿من لدنك﴾ تأكيد لكونه وليًا مرضيًا بكونه مضافًا إلى الله تعالى وصادرًا من عنده، وإلا فهب لي وليًا يرثني كاف، أو أراد اختراعًا منك بلا سبب لأني وامرأتي لا نصلح للولادة.

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾.

﴿يرثني ويرث﴾ الجزم جواب الدعاء والرفع صفة ونحوه ﴿ردءًا يصدقني﴾[1]. وعن ابن عباس والجحدري: يرثني وارث آل يعقوب نصب على الحال. وعن الجحدري، أو يرث على تصغير وارث، وقال: غليم صغير. وعن علي رضي الله عنه وجماعة: وارث من آل يعقوب أي: يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان. والمراد بالإرث: إرث الشرع والعلم؛ لأنّ الأنبياء لا تورث المال، وقيل: يرثني الحبورة وكان حبرًا، ويرث من آل يعقوب الملك. ويقال: ورثته وورثت منه لغتان. وقيل: من للتبعيض لا للتعدية؛ لأنّ آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحٰق. وقيل: هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا. وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود.

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾.

﴿سميًا﴾ لم يسم أحد بيحي قبله، وهذا شاهد على أنّ الأسامي السنع جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبر، حتى قال القائل في مدح قوم:

سنع الأسامي مسبلي أزر ... حمر تمس الأرض بالهدب

وقال رؤبة للنسابة البكري وقد سأله عن نسبه: أنا ابن العجاج. فقال: قصرت وعرفت. وقيل: مثلاً وشبيهًا عن مجاهد كقوله: ﴿هل تعلم له سميًا﴾[2]. وإنما قيل للمثل سمي؛ لأنّ كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير فكل واحد منهما سمي لصاحبه. ونحو يحيى في أسمائهم يعمر ويعيش إن كانت التسمية عربية، وقد سموا بيموت أيضًا وهو: يموت ابن المزرع قال: لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر، وأنه كان حصورًا أي: كانت عليّ صفة العقر حين أنا شاب وكهل، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين. أفحين اختل السببان جميعًا أرزقه!.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾.

فإن قُلْتَ:[3] لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتي

---

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة مريم، الآية: 65.

(3) قال أحمد: وفيما أجاب به نظر؛ لأنه التزم أنّ زكريا استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه، ولا يجوز للنبي النطق بما لا يسوغ، لمثل هذه الفائدة التي عينها الزمخشري، ويمكن حصولها بدونه،= = فالظاهر في الجواب، والله أعلم، أن طلبة زكريا إنما كانت ولداً من حيث الجملة، وبحسب ذلك أجيب، وليس في الإجابة ما يدل على أنه يولد له وهو هرم، ولا أنه من زوجته وهي عاقر، فاحتمل عنده أن يكون الموعود وهما بهذه الحالة، واحتمل أن تعادلهما قوتهما وشبابهما، كما فعل الله ذلك لغيرهما، أو أن يكون من غير زوجته=

والعقر فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ **قُلْتُ:** ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيقانًا ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخرًا كان على منهاج واحد في أنّ الله غني عن الأسباب. أي بلغت عتيًا وهو: اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل يقال:عتا العود وعسا من أجل الكبر والظعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيًا. وقرأ ابن وثاب، وحمزة، والكسائي: بكسر العين وكذلك ﴿صليًا﴾[1] وابن مسعود: بفتحهما فيهما. وقرأ أبيّ ومجاهد: عسيًا.

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكِ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾.

﴿كذلك﴾ الكاف رفع أي: الأمر كذلك تصديق له، ثم ابتدأ ﴿قال ربك﴾ أو نصب بقال، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره ﴿هو عليّ هيّن﴾ ونحوه: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾[2]. وقرأ الحسن: وهو علي هين. ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأوّل أي: الأمر كما قلت، وهو على ذلك يهون علي، ووجه آخر وهو: أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله لا إلى قول زكريا، وقال محذوف في كلتا القراءتين أي: قل هو علي هين، قال وهو علي هين، وإن شئت لم تنوه؛ لأنّ الله هو المخاطب والمعنى: أنه قال ذلك ووعده وقوله الحق ﴿شيئًا﴾[3] لأن المعدوم ليس بشيء، أو شيئًا يعتدّ به كقولهم: عجبت من لا شيء وقوله:

إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

وقرأ الأعمش، والكسائي، وابن وثاب: خلقناك.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾.

أي جعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به، قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سوي الخلق ما بك خرس ولا بكم. دلّ ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أنّ المنع من الكلام استمرّ به ثلاثة أيام ولياليهنّ.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾.

أوحى: أشار، عن مجاهد: ويشهد له: ﴿إلا رمزًا﴾[4] وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض ﴿سبحوا﴾ صلوا، أو على لظاهر وأن هي المفسرة.

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾.

أي: خذ التوراة بجدّ واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿الحكم﴾ الحكمة ومنه: واحكم كحكم فتاة الحي، يقال: حكم حكمًا كحلم، وهو: الفهم للتوراة والفقه في الدين. عن ابن عباس، وقيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال: ما للعب خلقنا. عن الضحاك، وعن معمر: العقل، وقيل: النبوّة؛ لأنّ الله أحكم عقله في صباه، وأوحى إليه ﴿حنانًا﴾ رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفًا وشفقة. أنشد سيبويه:

وقالت حنان ما أتى بك ههنا ... أنو نسب أم أنت بالحي عارف

وقيل: حنانًا من الله عليه، وحنّ في معنى ارتاح واشتاق ثم استعمل في العطف والرأفة. وقيل: لله حنان كما قيل: رحيم على سبيل الاستعارة. والزكاة: الطهارة، وقيل: الصدقة أي: يتعطف على الناس ويتصدّق عليهم. سلم الله عليه في هذه الأحوال، قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾.

﴿إذ﴾ بدل من مريم بدل الاشتمال؛ لأنّ الإحياء مشتملة على ما فيها، وفيه أنّ المقصود بذكر مريم: ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه. والانتباذ: الاعتزال والانفراد، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط، أو بشيء يسترها، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينا هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سويّ الخلق لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئًا، أو حسن الصورة مستوى الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.

قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾.

= العاقر، فاستبعد الولد منهما، وهما بحالهما، فاستخبر أن يكون وهما كذلك، فقيل: كذلك، أي: يكون الولد وأنتما كذلك، فقد انصرف الإبعاد إلى عين الموعود، فزال الإشكال، والله أعلم.

(1) سورة مريم، الآية: 70.

(2) سورة الحجر، الآية: 66.

(3) قال أحمد: فسر أولاً على ظاهر النفي الصرف، وهو الحق؛ لأنّ = المعدوم ليس شيئاً قطعاً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إنّ المعدوم الممكن شيء، ومن ثم كافح الزمخشري عن البقاء على التفسير الأوّل إلى الثاني، بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة، فجعل المنفي الشيئية المعتدّ بها، وإن كانت الشيئية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم، والحق بقاء الظاهر في نصابه.

(4) سورة آل عمران، الآية: 41.

ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبرا لعفتها. وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك، وقيل قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه: يوسف من خدم بيت المقدس. وقيل: إنّ النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكانًا شرقيًا. الروح جبريل؛ لأنّ الدين يحيا به وبوحيه، أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريبًا كما تقول لحبيبك: أنت روحي، وقرأ أبو حيوة: روحنا بالفتح؛ لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدّة المقرّبين في قوله: ﴿فأمّا إن كان من المقرّبين فروح وريحان﴾[1] أو لأنه من المقرّبين وهم الموعودون بالروح أي: مقرّبنا وذا روحنا. أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كقوله تعالى: ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾[2]. أي: إنما أنا رسول من استعنت به ﴿لأهب لك﴾ لأكون سببًا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع، وفي بعض المصاحف: إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك، أو هي حكاية لقول الله تعالى. جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿من قبل أن تمسوهنّ﴾[3] ﴿أو لمستم النساء﴾[4] والزنا ليس كذلك إنما يقال فيه: فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب، والبغي الفاجرة التي تبغي الرجال، وهي فعول عند المبرّد: بغوي فادغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً لقيل بغو، كما قيل: فلان نهوّ عن المنكر ﴿ولنجعله﴾ آية تعليل معللة محذوف أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر أي: لنبين به قدرتنا ولنجعله آية، ونحوه: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾[5] وقوله: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾[6] ولنعلمه.

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾.

﴿مقضيًا﴾ مقدّرًا مسطورًا في اللوح لابدّ لك من جريه عليك، أو كان أمرًا حقيقًا بأن يكون ويقضي لكونه آية رحمة، والمراد بالآية: العبرة والبرهان على قدرة الله، وبالرحمة: الشرائع والألطاف، وما كان سببًا في قوّة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكوين. عن ابن عباس: فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت، وقيل: كانت مدّة الحمل ستة أشهر، وعن عطا، وأبي العالية، والضحاك: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل:حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وعن ابن عباس: كانت مدّة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته، وقيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل: بنت عشر، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وقالوا: ما من مولود إلا يستهلّ غيره ﴿فانتبذت به﴾ أي: اعتزلت وهو في بطنها كقوله:

تدوس بنا الجماجم والتريبا

أي: تدوس الجماجم ونحن على ظهورها. ونحوه قوله تعالى: ﴿تنبت بالدهن﴾[7] أي: تنبت ودهنها فيها، الجار والمجرور في موضع الحال ﴿قصيًا﴾ بعيدًا من أهلها وراء الجبل. وقيل: أقصى الدار، وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل: حملت من الزنا خاف عليها قتل الملك، فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق حدّثته نفسه بأن يقتلها، فأتاه جبريل فقال: إنه من روح القدس فلا تقتلها، فتركها.

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًا ﴿٢٣﴾.

﴿فأجاءها﴾ أجاء منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد، كما نقول: بلغته وأبلغنيه، ونظيره: آتي حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل: أتيت المكان وآتانيه فلان. قرأ ابن كثير في رواية ﴿المخاض﴾ بالكسر يقال: مخضت الحامل مخاضًا ومخاضًا وهو: تمخض الولد في بطنها. طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف لا يخلو: إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة، كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس فإذا قيل: جذع النخلة فهم منه تلك دون غيره من جذوع النخل. وإمّا: أن يكون تعريف الجنس أي: جذع هذه الشجرة خاصة، كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها؛ ولأن النخلة أقل شيء صبرًا على البرد،

(1) سورة الواقعة، الآيتان: 88 و89.
(2) سورة هود، الآية: 86.
(3) سورة البقرة، الآية: 237.
(4) سورة النساء، الآية: 43.
(5) سورة الجاثية، الآية: 22.
(6) سورة يوسف، الآية: 56.
(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها. قرئ: ﴿مت﴾ بالضم والكسر، يقال: مات يموت ومات يمات.

النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث

ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[1] وعن يونس: العرب إذ ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم أي: الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ، تمنت لو كانت شيئًا تافهًا لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشوّر من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله أو لشدّة التكليف عليها إذا بهتوها، وهي عارفة ببراءة الساحة وبضدّ ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام؛ لأنه مقام دحض فلما تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبًا يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها، وقرأ ابن وثاب، والأعمش، وحمزة، وحفص: نسيًا بالفتح. قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر كالحمل، وقرأ محمد بن كعب القرظي: نسأ بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته وقرأ الأعمش: منسيًا بالكسر على الاتباع كالمغيرة والمنخر.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾.

﴿من تحتها﴾ هو: جبريل عليه السلام قيل: كان يقبل الولد كالقابلة، وقيل: هو عيسى وهي: قراءة عاصم وأبي عمرو، وقيل: تحتها أسفل من مكانها كقوله: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾[2] وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة فصاح بها: لا تحزني وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي؛ وحفص؛ من تحتها وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى، وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة، وقرأ زر وعلقمة: فخاطبها من تحتها. سئل النبي ﷺ عن السري فقال: «هو الجدول»[3]. وقال لبيد:

فتوسطا عرض السري فصدّعا ... مسجورة متجاورًا قلامها

وقيل: هو من السرور والمراد عيسى، وعن الحسن: كان والله عبدًا سريًا.

فإن قُلْتَ: ماكان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب؟ **قُلْتُ:** لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أمورًا إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾.

﴿تساقط﴾ فيه تسع قراآت: تساقط بإدغام التام، وتتساقط بإظهار التاءين، وتساقط بطرح الثانية، ويساقط بالياء وإدغام التاء، وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط، التاء للنخلة والياء للجذع، ورطبًا تمييز، أو مفعول على حسب القراءة، وعن المبرد: جواز انتصابه بهزي وليس بذاك، والباء في بجذع النخلة صلة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[4] أو على معنى: افعلي الهز به كقوله: يحرح في عراقبها نصلي، قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك، وقالوا: كان من العجوة، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل. وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب. عن طلحة بن سليمان ﴿جنيًا﴾ بكسر الجيم للاتباع أي: جمعنا لك في السري والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب، والثانية: سلوة الصدر لكونهما معجزتين وهو معنى قوله: ﴿فكلي واشربي وقري عينًا﴾ أي: وطيبي نفسًا ولا تغتمي، وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك. وقرئ: ﴿وقري﴾ بالكسر لغة نجد ﴿فإما ترين﴾ بالهمز، ابن الرومي. عن أبي عمرو: وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج: وحلأت السويق، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صومًا﴾ صمتًا، وفي مصحف عبد الله: صمتًا، وعن أنس بن مالك مثله، وقيل: صيامًا، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت[5]؛ لأنه نسخ في أمته، أمرها الله بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام المعنيين أحدهما: أنّ عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبريء به ساحتها، والثاني: كراة مجادلة السفهاء ومناقلتهم، وفيه أنّ السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهًا، قيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقيل: سوغ لها بالنطق ﴿إنسيًا﴾ أي: أكلم الملائكة دون الإنس.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾.

الفري: البديع وهو من فرى الجلد ﴿يا اخت هٰرون﴾ كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل وقيل: هو: أخوه

---

(1) سورة الصافات، الآية: 107.

(2) سورة البقرة، الآية: 25.

(3) رواه الحاكم في المستدرك 2/273.

(4) سورة البقرة، الآية: 195.

(5) تقدم عن أبي داود في سورة النساء.

موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «إنما عنوا هُرون النبي، وكانت من أعقابه في طبقة الإخوة، بينها وبينه ألف سنة وأكثر». وعن السدي: كانت من أولاده، وإنما قيل: يا أخت هُرون[1] كما يقال: يا أخا همدان أي: يا واحدًا منهم، وقيل: رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها، أي: كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموا به، ولم ترد إخوة النسب. ذكر أن هُرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفًا كلهم يسمى هُرون تبركًا به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهرون هذا. وقرأ عمر بن لجا التيمي: ﴿ما كان أبوك امرؤ سوء﴾ وقيل: احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فلبثوا فيه أربعين يومًا حتى تعلت من نفاسها، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق، فقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكبوا وقالوا ذلك، وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام فتركوها.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾.

﴿فأشارت إليه﴾ أي: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها. وروي: أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل: كلهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغًا يتكلم فيه الصبيان ﴿كان﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو ههنا: لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر: أن يكون نكلم حكاية حال ماضية أي: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيًا في المهد فيما سلف من الزمان حتى تكلم هذا.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾.

أنطقه الله أولاً بأنه عبد الله ردًا لقول النصارى و ﴿الكتاب﴾ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوّته، فقيل: أعطيها في طفوليته، أكمل الله عقله واستنبأ طفلاً نظرًا في ظاهر الآية، وقيل معناه: إنّ ذلك سبق في قضائه، أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد ﴿مباركًا أينما كنت﴾ عن رسول الله ﷺ: «نفاعًا حيث كنت»[2]. وقيل: معلمًا للخير. وقرئ: ﴿وبرًا﴾ عن أبي نهيك: جعل ذاته برًا لفرط بره، أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني؛ لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد ﴿والسلام علي﴾ قيل: أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك: جاءنا رجل فكان من فعل الرجل كذا، والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلي، والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضًا باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أنّ اللام للجنس فإذا قال: وجنس السلام علي خاصة، فقد عرض بأن ضده عليكم. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾[3] يعني: أنّ العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام مناكرة وعاد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض.

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾.

قرأ عاصم وابن عامر ﴿قول الحق﴾ بالنصب، وعن ابن مسعود: قال الحق، وقال الله، وعن الحسن: قول الحق بضم القاف وكذلك في الأنعام ﴿قوله الحق﴾[4] والقول والقال والقول بمعنى واحد: كالرهب والرهب والرهب، وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق كقولك: هو عبد الله حقًا والحق لا الباطل، وإنما قيل لعيسى: كلمة الله و﴿قول الحق﴾ لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها: وهي قوله: كن من غير واسطة أب تسمية للمسبب باسم السبب كما سمي العشب بالسماء، والشحم والشحم بالندا، ويحتمل: إذا أريد بقول الحق عيسى أن يكون الحق اسم الله عزّ وجل، وأن يكون بمعنى: الثبات والصدق ويعضده قوله: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون ﴿يمترون﴾ يشكون والمرية: الشك، أو يتمارون: يتلاحون، قالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تمترون على الخطاب، وعن أبي بن كعب: قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون. كذب النصارى. وبكتهم بالدلالة على إنتفاء الولد عنه وأنه مما لا يتأتى ولا يتصوّر في العقول ولي بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئًا من الأجناس كلها أوجده: يكن، كان منزهًا من شبه الحيوان الوالد. والقول ههنا مجاز ومعناه، أنّ إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف، فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المتمثل.

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾.

---

(1) رواه مسلم في كتاب: الآداب باب: النهي التكني بابي القاسم وبيان ما يستحب من الاسماء (الحديث رقم: 5563) والترمذي في كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3155).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية: 3/25.

(3) سورة طه، الآية: 47.

(4) سورة الانعام، الآية: 73.

وقرأ المدنيون، وأبو عمرو: بفتح أن ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعبدوه، كقوله: ﴿وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا﴾[1] والأستار، وأبو عبيد: بالكسر على الابتداء، وفي حرف أبي: إنّ الله بالكسر بغير واو، وبأنّ الله أي: بسبب ذلك فاعبدوه.

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾.

﴿الأحزاب﴾ اليهود والنصارى. عن الكلبي، وقيل: النصارى لتحزبهم ثلاث فرق، نسطورية ويعقوبية وملكانية، وعن الحسن الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة. أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو من وقت الشهود، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء والسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، أو من مكان الشهادة، أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدا به في عيسى وأمّه.

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَن عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾.

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد: أنّ أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صمًا وعميًا في الدنيا، وقيل معناه: التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم. أوقع الظاهر أعني: الظالمين موقع الضمير إشعارًا بأن لا ظلم أشدّ من ظلمهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم، والمراد. بالضلال المبين: إغفال النظر والاستماع.

﴿وقضي الأمر﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار. وعن النبي ﷺ أنه سئل عنه أي: عن قضاء الأمر فقال: «حين ينبح الكبش والفريقان ينظران»[2]. وإذ بدل من يوم الحسرة، أو منصوب بالحسرة ﴿وهم في غفلة﴾ متعلق بقوله: ﴿في ضلال مبين﴾، عن الحسن ﴿وأنذرهم﴾ اعتراض، أو هو متعلق بأنذرهم أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين. يحتمل أنه يميتهم ويخرب ديارهم وأنه يفني أجسادهم، ويفني الأرض ويذهب بها.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾.

الصديق: من أبنية المبالغة، ونظيره: الضحيك، والنطيق، والمراد: فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أي: كان مصدقًا بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيًا في نفسه كقوله تعالى: ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾[3] وكان بليغًا في الصدق. لأنّ ملاك أمر النبوّة الصدق، ومصدق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك، وهذه الجملة وقعت اعتراضًا بين المبدل منه وبدله أعني: إبراهيم و﴿إذ قال﴾ نحو قولك، رأيت زيدًا، ونعم الرجل أخاك، ويجوز أن يتعلق إذ بكان، أو بصديقًا نبيًا أي: كان جامعًا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات، والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب: أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾[4] وإلا فالله عزّ وجلّ هو ذاكره وموردة في تنزيله. التاء في ﴿يا أبت﴾ عوض من ياء الإضافة، ولا يقال يا أبتي لئلا يجمع بين العوض والمعوّض منه. وقيل: يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء، وشبه ذلك سيبويه: بأينق وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة. انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورّطًا فيه، من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن، منتصحًا في ذلك بنصيحة ربه عزّ وعلا، حدّث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام إنك خليلي، حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، فإنّ كلمتي سبقت لمن حسن خلقه، أظله تحت عرشي، وأسكنه حظيرة القدس، وأدنيه من جواري»[5]. وذلك أنه طلب منه أوّلاً: العلة في خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأنّ المعبود لو كان حيًا مميزًا سميعًا بصيرًا مقتدرًا على الثواب والعقاب نافعا ضارًا إلا أنه بعض الخلق، لاستخفّ عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغيّ المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين قال الله تعالى: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾[6] وذلك أنّ العبادة هي غاية التعظيم فلا تحق

---

(1) سورة الجن، الآية: 18.

(2) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «وأنذرهم يوم الحسرة» (الحديث رقم: 4730) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (الحديث رقم: 40 ـ 2849).

(3) سورة الصافات، الآية: 37.

(4) سورة الشعراء، الآية: 69.

(5) رواه الطبراني في الأوسط، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، (الزيلعي 2/326).

(6) سورة آل عمران، الآية: 80.

إلا لمن له غاية الإنعام وهو: الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها، فإذا وجهت إلى غيره وتعالى علوًا كبيرًا أن تكون هذه الصفة لغيرة لم يكن إلا ظلمًا وعتوًا وغيًا وكفرًا وجحودًا وخروجًا عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور: فلا يسمع يا عابده نكرك له وثناءك عليه، ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له، فضلاً أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيها.

يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾.

ثم ثنى: بدعوته إلى الحق مترفقًا به متلطفًا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إنّ معي طائفة من العلم وشيئًا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضلّ وتتيه.

يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾.

ثم ثلث: بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأنّ الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو: عدوّك الذي لا يريد بك إلا كلّ هلاك وخزي ونكال، وعدوّ أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم. هو: الذي ورّطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أنّ إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الأخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم ينكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى نكر معاداته لآدم وذرّيته، كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه.

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾.

ثم ربع: بتخويفه سوء العاقبة وبما يجرّه ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرّح بأنّ العقاب لا حق له وأنّ العذاب لاصق به ولكنه قال: **﴿أخاف أن يمسك عذاب﴾** فنكر الخوف والمسّ ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أنّ رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال: ﴿ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[1] فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله:

يا أبت توسلاً إليه واستعطافًا

﴿ما في﴾ ﴿ما لا يسمع﴾ و**﴿ما لم ياتك﴾** يجوز أن تكون: موصولة وموصوفة والمفعول في لا يسمع ولا يبصر منسي غير منويّ كقولك:

ليس به استماع ولا إبصار

﴿شيئًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون في موضع المصدر أي: شيئًا من الغناء، ويجوز أن يقدّر نحوه مع الفعلين السابقين، والثاني: أن يكون مفعولاً به من قولهم:

أغنى عني وجهك

﴿إني قد جائني من العلم ما لم ياتك﴾ فيه تجدّد العلم عنده. لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات. أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه، ولم يقابل يا أبت بيا بنيّ: وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله: **﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾** لأنه كان أهمّ عنده، وهو عنده أعني وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد، وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقي من مثل ذلك من كفار قومه **﴿لأرجمنك﴾** لأرمينك بلساني يريد الشتم والذمّ، ومنه الرجيم المرمي باللعن، أو لأقتلنك من رجم الزاني، أو لأطردنك رميًا بالحجارة، وأصل الرجم الرمي بالرجام **﴿مليًا﴾** زمانًا طويلاً من الملاوة أو مليًا بالذهاب عني والهجران قبل أن أتخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح، يقال: فلان ملي بكذا إذا كان مطيقًا له مضطلعًا به.

فإن قُلْتَ: علام عطف **﴿واهجرني﴾**؟ **قُلْتُ:** على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك أي: فاحذرني واهجرني؛ لأن لأرجمنك تهديد وتقريع.

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾.

﴿قال سلام عليك﴾ سلام توديع ومتاركة كقوله تعالى: **﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾**[2] وقوله: **﴿وإذا خاطبهم الجاهون قالوا سلامًا﴾**[3] وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده الاستغفار.

فإن قُلْتَ: كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده ذلك؟ **قُلْتُ:** قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

(3) سورة الفرقان، الآية: 63.

الوضوء والنصاب، وقالوا: إنما استغفر له بقوله: ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾[1] لأنه وعده أن يؤمن، واستشهدوا عليه بقوله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾[2] ولقائل[3] أن يقول: إنّ الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع، فأمّا القضية العقلية فلا تأباه، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل، والذي يدل على صحته قوله تعالى: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك﴾[4] فلو كان شارطًا للإيمان لم يكن مستنكرًا أو مستثنى عما وجبت فيه الأسوة، وأمّا عن موعدة وعدها إياه، قالوا: عد هو إبراهيم لا آزر أي؛ ما قال: واغفر لأبي إلا عن قوله: لأستغفرنّ لك وتشهد له قراءة حماد الراوية وعدها أباه وا الله أعلم ﴿حفيًا﴾ الحفي البليغ في البر والإلطاف حفي به وتحفى به.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾.

﴿واعتزلكم﴾ أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام. المراد بالدعاء العبادة؛ لأنه منها ومن وسائطها، ومنه قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[5]. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء، عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله: ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا﴾ مع التواضع لله بكلمة عسى وما فيه من هضم النفس ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه، فعوضه أولادًا مؤمنين أنبياء.

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾.

﴿من رحمتنا﴾ هي النبوّة. عن الحسن، وعن الكلبي: المال والولد وتكون عامّة في كل خير ديني ودنيوي أوتوه. لسان الصدق: الثناء الحسن، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية. قال:

إني أتتني لسان لا أسرّ بها

يريد الرسالة، ولسان العرب لغتهم وكلامهم. استجاب الله دعوته ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾[6] فصيره قدوة حتى ادّعاه أهل الأديان كلهم، وقال عزّ وجل: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾[7] و﴿ملة إبراهيم حنيفا﴾[8] ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا﴾[9] وأعطى ذلك ذرّيته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم كما أعلى ذكره وأثنى عليه.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾.

المخلص: بالكسر الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله. وبالفتح الذي أخلصه الله. الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي الذي ينبىء عن الله عزّ وجلّ وإن لم يكن معه كتاب كيوشع. الأيمن من اليمين أي: من ناحيته اليمنى، أو من اليمن صفة للطور أو للجانب، شبهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك. وعن أبي العالية: قرّبه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة ﴿من رحمتنا﴾ من أجل رحمتنا وترافدنا عليه وهبنا له هُرون، أو بعض رحمتنا كما في قوله: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾[10] وأخاه على هذا الوجه بدل، وهُرون عطف بيان، كقولك: رأيت رجلاً أخاك زيدًا، أو كان هُرون أكبر من موسى، فوقعت الهبة على معاضدته وموازرته. كذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾.

نكر إسمعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان ذلك موجودًا في غيره من الأنبياء تشريفًا له وإكرامًا كالتلقيب بنحو الحليم، والأوّاه، والصدّيق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. عن ابن عباس رضي الله عنه؛ أنه وعد صاحبًا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة، وناهيك أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى حيث قال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[11] كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ولأنهم أولى من سائر الناس ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[12] ﴿وأمر

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 86.

(2) سورة التوبة، الآية: 114.

(3) قال أحمد: وهذه لمظ من الاعتزال، مستطيرة من شرر شرقاً قاعدة التحسين والتقبيح، والحق أن العقل لا مدخل له، في أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به، ثم لم يوف الزمخشري بها، فإنه جعل العقل يسوغ الاستغفار، وجعل الشرع مانعاً منه، ولا يتصوّر هذا على قاعدتهم المهدمة، كمالا يتصوّر ورود الشرع بما يخالف العقل في الإلهيات، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه، وأمّا ما يظهر العقل خلافه، فلا.

(4) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(5) رواه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، (الحديث رقم= 890) وأبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (الحديث رقم: 3247) وابن ماجه في كتاب: الدعاء باب فضل الدعاء.

(6) سورة الشعراء، الآية: 84.

(7) سورة الحج، الآية: 78.

(8) سورة النساء، الآية: 125.

(9) سورة النحل، الآية: 50.

(10) سورة مريم، الآية: 50.

(11) سورة الصافات، الآية: 102.

(12) سورة الشعراء، الآية: 214.

أهلك بالصلاة﴾[1] ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾[2] ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم فالإحسان الديني أولى، وقيل: أهله أمته كلهم من القرابة، وغيرهم لأنّ أمم النبيين في عداد أهاليهم، وفيه أنّ من حق الصالح أن لا يألوا نصحًا للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين به، وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾.

قيل: سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عزّ وجل، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان أفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو: العلمية فكان منصرفًا، فامتناعه من الصرف دليل العجمة، وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بأسرال، كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معنى: إدريس في تلك اللغة قريبًا من ذلك فحسبه الراوي مشتقًا من الدرس. المكان العلي: شرف النبوة والزلفى: عند الله. وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم، ونظر في علم النجوم، والحساب، وأول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا يلبسون الجلود. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه: إنه رفع إلى السماء الرابعة[3]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إلى السماء السادسة[4] وعن الحسن رضي الله عنه: إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة، وعن النابغة الجعدي: أنه لما أنشد عند رسول الله ﷺ الشعر الذي آخره:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال رسول الله ﷺ: «إلى أين يا أبا ليلى». قال: إلى الجنة[5].

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. ومن في ﴿من النبيين﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾[6] لأن جميع الأنبياء منعم عليهم، ومن الثانية للتبعيض، وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبي نوح، وإبراهيم عليه السلام من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه من ذرية سام بن نوح، وإسمعيل من ذرية إبراهيم وموسى وهارون وزكريا ويحيى من ذرية إسرائيل، وكذلك عيسى لأنّ مريم من ذريته ﴿وممن هدينا﴾ يحتمل العطف على من الأولى والثانية.

إن جعلت الذين خبرًا لأولئك كان ﴿إذا تتلى﴾ كلامًا مستانفًا، وإن جعلته صفة له كان خبرًا. قرأ شبل بن عباد المكي: يتلى بالتذكير؛ لأنّ التأنيث غير حقيقي مع وجود الفاصل. البكيّ جمع باك كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد. عن رسول الله ﷺ رسول لله ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»[7]. وعن صالح المري رضي الله عنه: قرأت القرآن على رسول لله ﷺ في المنام فقال في: «هذه القراءة يا صالح فأين البكاء؟»[8] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، وعن رسول لله ﷺ: «إن القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا». وقالوا: يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها، فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وإن قرأ: سجدة سبحان قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾.

خلفه إذا عقبه، ثم قيل: في عقب الخير خلف بالفتح، وفي عقب السوء خلف بالسكون، كما قالوا: وعد في ضمان الخير، ووعيد في ضمان الشر. عن ابن عباس رضي الله عنه: هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب. وعن إبراهيم، ومجاهد رضي الله عنهما: أضاعوها بالتأخير وينصر الأول، قوله: ﴿إلا من تاب وآمن﴾ يعني: الكفار. وعن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من بني الشديد، وركب المنظور. ولبس المشهور، وعن قتادة رضي الله عنه: هو في هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والضحاك رضي الله عنهم: الصلوات بالجمع. كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد قال المرقش:

فمن يلق خيرًا تحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائمًا

وعن الزجاج: جزاء غي كقوله تعالى: ﴿يلق أثامًا﴾[9]

(1) سورة طه، الآية: 132.
(2) سورة التحريم، الآية: 6.
(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3157).
(4) رواه الطبري في تفسيره وابن مردويه، (الزيلعي 2/328).
(5) رواه أبو نعيم والبيهقي في دلائل البنوّة، (الزيلعي 2/329).
(6) سورة الفتح، الآية: 29.
(7) رواه أبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 689).
(8) رواه أبو نعيم في الحلية 6/196.
(9) سورة الفرقان، الآية: 68.

أي: مجازاة آثام، أو غيًا عن طريق الجنة، وقيل: غي واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها. وقرأ الأخفش: يلقون. قرىء: يدخلون ويدخلون أي: لا ينقصون شيئًا من جزاء أعمالهم، ولا يمنعونه بل يضاعف لهم بيانًا؛ لأنّ تقدّم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك من قولك: ما ظلمك أن تفعل كذا، ما منعك، أو لا يظلمون البتة أي: شيئًا من الظلم.

جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾.

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت منها كقولك: أبصرت دارك القاعة والعلالي. وعدن معرفة علم بمعنى: العدن، وهو: الإقامة، كما جعلوا فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفه أعلامًا لمعاني الفينة والسحر والأمس فجرى مجرى العدن لذلك، أو هو علم الأرض الجنة لكونها مكان إقامة، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال؛ لأنّ النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصولة ولما ساغ وصفها بالتي. وقرىء: جنات عدن وجنة عدن بالرفع على الابتداء. أي؛ وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة، أوهم غائبون عنها لا يشاهدونها، أو بتصديق الغيب والإيمان به. قيل في ﴿ماتيًا﴾ مفعول بمعنى: فاعل؛ والوجه: أنّ الوعد هو الجنة وهم يأتونها، أو هو من قولك أتى إليه إحسانًا أي: كان وعده مفعولاً منجزًا.

لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾.

اللغو فضول الكلام وما لا طائل تحته، وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها وما أحسن قوله سبحانه: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كرامًا﴾[1] ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[2] نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا. أي: إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً[3] إلا ذلك فهو من وادي قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائب

أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة على الاستثناء المنقطع، أو لأن معنى: السلام[4] هو: الدعاء بالسلامة، ودار السلام هي: دار السلامة، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام. من الناس من يأكل الوجبة، ومنهم من يأكل متى وجد وهي: عادة المنهومين، ومنهم من يتغدى ويتعشى وهي العادة الوسطى المحمودة، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ولكن على التقدير؛ لأن المتنعم عن العرب من وجد غداء وعشاء، وقيل: أراد دوام الرزق ودروره كما تقول: أنا عند فلان صباحًا ومساءً وبكرة وعشيًا يريد: الديمومة، ولا تقصد الوقتين المعلومين.

تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾.

﴿نورث﴾ وقرىء: نورث استعارة أي: نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية: وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى، وقيل: أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾.

﴿وما نتنزل﴾ حكاية قول جبريل صلوات الله عليه حين استبطأه رسول الله ﷺ، وروي: أنه احتبس أربعين يومًا، وقيل: خمسة عشر يومًا وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فشق ذلك عليه مشقة شديدة، وقال المشركون: ودعه ربه وقلاه، فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي ﷺ: «أبطأت حتى ساء ظني، واشتقت إليك». قال: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست. وأنزل الله سبحانه هذه الآية، وسورة الضحى[5]، والتنزل على معنيين: معنى النزول على مهل، ومعنى النزول على الإطلاق كقوله:

فلست لأنسى ولكن لملأك ... تنزل من جو السماء يصوب

لأنه مطاوع نزل، ونزل يكون بمعنى: أنزل وبمعنى: التدريج، واللائق بهذا الموضع هو: النزول على مهل، والمراد: أن نزولنا في الأحايين وقتاغب وقت ليس إلا بأمر الله وعلى ما يراه صوابًا وحكمة وله ما قدامنا ﴿وما خلفنا﴾ من الجهات والأماكن ﴿وما بين ذلك﴾ وما نحن فيها، فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيئته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث ويتجدّد من الأحوال، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان، فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وحكمة وأطلق لنا الإذن فيه، وقيل: ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفختين، وهو أربعون سنة، وقيل: ما

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والفرق بين الوجهين، أنه جعل الفلول عيباً على سبيل التجوّز بتأ، لنفي العيب بالكلية، كأنه يقول: إن كان فلول السيوف من القراع عيباً، فإنهم ذوو عيب، معناه: وإن لم يكن عيباً، فليس فيهم عيب البتة: لأنه لا شي سوء هذا، فهو بعد هذا التجوّز = والفرض، استثناء متصل.

(4) قال أحمد: وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة، لا كالأوّل الناشئ عن المجاز، وفي هذا الباب بعد؛ لأنه يقتضي البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول، وحاش لله، فلا غول فيها، ولا لغو.

(5) رواه ابن إسحاق في سيرته وأبو نعيم في الدلائل والثعلبي والواحدي في أسباب النزول ص 170.

مضى من أعمارنا وما غبر منها والحال التي نحن فيها، وقيل: ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا، وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا، وما بين السماء والأرض، والمعنى: أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادرًا عما توجبه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه. وقيل؛ معنى ﴿**وما كان ربك نسيًا**﴾ وما كان تاركًا لك كقوله تعالى؛ ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾[1] أي: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به، وأمّا احتباس الوحي فلم يكن عن ترك الله لك وتوديعه إياك، ولكن لتوقفه على المصلحة، وقيل: هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة أي: وما ننزل الجنة إلا بأن منّ الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة، اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازي عليها، ثم قال الله تعالى تقريرًا لقولهم: ما كان ربك نسيًا لأعمال العاملين غافلاً عما يجب أن يثابوا به، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذي ملكوت السماء والأرض وما بينهما.

ثم قال لرسوله ﷺ: فحين عرفته على هذه الصفة، فأقبل على العمل واعبده يثبك كما أثاب غيرك من المتقين، وقرأ الأعرج رضي الله عنه: وما يتنزل بالياء: على الحكاية عن جبريل عليه السلام، والضمير للوحي، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إلا بقول ربك. يجب أن يكون الخلاف في النسي مثله في البغي. وعلى هذا الوجه، يجوز أن يكون ﴿وما كان ربك نسيًا﴾ من كلام المتقين، وما بعده من كلام رب العزة.

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾.

﴿**رب السمٰوات والأرض**﴾ بدل من ربك، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هو رب السمٰوات والأرض ﴿**فاعبده**﴾ كقوله:

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

فإن قُلْتَ: هلا عدّى ﴿**اصطبر**﴾ بعلى التي هي صلته كقوله تعالى: ﴿واصطبر عليها﴾ **قُلْتُ**[2]: لأنّ العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي: اثبت له فيما يورد عليك من شدّته، أريد: أنّ العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن، ولا يضيق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط، وعن احتباس الوحي عليك مدّة وشماتة المشركين بك. أي: لم يسم شيء بالله قط، وكانوا يقولون لأصنامهم: آلهة، والعزّى إله، وأمّا الذي عوّض فيه الألف واللام من الهمزة فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمى أحد الرحمٰن غيره، ووجه آخر: هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل؛ لأنّ التسمية على الباطل في كونها غير معتدّ بها كلا تسمية، وقيل: مثلاً وشبيهًا أي: إذا صحّ أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها.

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾.

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة.

فإن قُلْتَ: لم جازت إرادة الأناسي كلهم وكلهم غير قائلين ذلك؟ **قُلْتُ:** لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم صحّ إسناده إلى جميعهم كما يقولون: بنو فلان قتلوا فلانًا وإنما القاتل رجل منهم، قال الفرزدق:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله: نبا بيدي ورقاء، وهو: ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

فإن قُلْتَ: بم انتصب إذا وانتصابه بأخرج ممتنع لأجل اللام، لا تقول اليوم لزيد قائم؟ **قُلْتُ:** بفعل مضمر يدل عليه المذكور.

فإن قُلْتَ[3]: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، فكيف جامعت حرف الاستقبال؟ **قُلْتُ:** لم تجامعها إلا مخلصة للتوكيد كما أخلصت الهمزة في يا الله للتعويض واضمحلّ عنها معنى التعريف، وما في إذا ما للتوكيد أيضًا فكانهم قالوا: أحقًا أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد، والمراد: الخروج من الأرض، أو من حال الفناء، أو هو من قولهم خرج فلان عالمًا وخرج شجاعًا، إذا كان نادرًا في ذلك يريد: سأخرج حيًا نادرًا على سبيل الهزؤ، وقرأ الحسن وأبو حيوة: لسوف أخرج، وعن طلحة بن مصرف رضي الله عنه: لسأخرج، كقراءة ابن مسعود رضي الله عنه؛ ولسيعطيك وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أنّ ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم فهو كقولك: للمسيء إل المحسن: أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه. الواو عطفت لا يذكر على يقول ووسطت همزة

---

(1) سورة الضحى، الآية: 3.

(2) سورة طه، الآية: 132.

(3) قال أحمد: والاعتقاد تناقض الحرفين منع الكوفيين اجتماعهما، وإنما جرّدت اللام من معناها، لتلائم سوف دون أن تجرّد سوف = لتلائم اللام؛ لأنه لو عكس هذا، للغت سوف، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال، وأمّا اللام إذا جرّدت من الحال، بقي لها التوكيد، فلم تلغ فتعين، والله أعلم.

الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعني[1]: أيقول ذاك ولا يتنكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى، فإنّ تلك أعجب وأغرب وأدلّ على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، ثم أوقع التأليف مشحونًا بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف، ولكن اختراعًا وإبداعًا من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته، وأمّا الثانية: فقد تقدّمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه، وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها وردّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق، وقوله تعالى: ﴿ولم يك شيئًا﴾ دليل على هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾[2] على أن رب العزة سواء عليه النشأتان لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل، ولا يحتاج إلى احتذا على مثال ولا استعانة بحكيم ولا نظر في مقياس، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعًا في بحر معاندته وكشفًا عن صفحة جهله. القرّاء كلهم على لا ينكر بالتشديد إلا نافعًا، وابن عامر، وعاصمًا رضي الله عنهم، فقد خففوا، في حرف أبيّ يتنكر ﴿من قبل﴾ من قبل الحالة التي هو فيها وهي: حالة بقائه في إقسام الله تعالى باسمه تقدّست أسماؤه مضافًا إلى رسول لله ﷺ تفخم لشأن رسول الله ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾[3] والواو في ﴿والشياطين﴾ يجوز أن تكون للعطف وبمعنى: مع وهي بمعنى: مع أوقع، والمعنى: أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، قرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

فإن قُلْتَ[4]: هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ **قُلْتُ**: إذا حشر جميع الناس حشرًا واحدًا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة.

فإن قُلْتَ: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء؟ **قُلْتُ**: لم يفرّق بينهم وبينهم في المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة وسرورًا إلى سرور ويشتموا بأعداء الله وأعدائهم، فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى إحضارهم جثيًا؟ **قُلْتُ**: أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى: أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم علاً على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو قال الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾[5] على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والناقلات من تجاثي أهلها على الركب لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة، أو لما يداهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيحبون على ركبهم حبوًا، وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم على أن جثيًا حال مقدرًا كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

والمراد بالشيعة: وهي فعلة كفرقة وفتية، الطائفة التي شاعت أي: تبعت غاويًا من الغواة. قال الله تعالى: ﴿إن

---

(1) قال أحمد: مذهب أهل السنة أنّ إعادة المعدوم جائزة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والمعتزلة وإن وافقت على ذلك، إلا أنها تزعم: أنّ المعدوم له ذات ثابتة في العدم، يقضي عليها بأنها شيء، فليس عندهم عدم صرف، ونفي محض قبل الوجود، ولا بعده، فكأنهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم، ولأنكروا إعادة المعدوم، كما أنكره القدماء، وعقيدة أهل السنة هي: المطابقة للآية؛ لأنّ النشأة الأولى لم يتقدّمها وجود، ولأنّ المنشأ ابتداء لم يكن شيئاً قبل ذلك، وأمّا النشأة الثانية، فقد تقدّمها وجود، وكان المنشأ قبلها شيئاً في زمان وجوده، ثم عدم وبطلت شيئيته، فظهر فرق ما بين النشأتين، كما نطق به القرآن، وأمّا المعتزلة، فإن قالوا: إنّ الأجسام يعدمها الله، ثم يوجدها، فقد قالوا الحق، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشأتين؛ لأنّ المعدوم فيهما كان شيئاً قبل النشأة، فإن قالوا: لا تنعدم الأجسام، وإنما تتفرّق ثم تجمع، كما صرح به الزمخشري؛ لأنه تفطن لأنّ القول بأنّ الأجسام تنعدم، ثم يوجدها الله تعالى، مع القول بأنّ المعدوم شيء يبطل الفرق بين النشأتين، ولم يطق ذلك، وقد نطق به القرآن، فالتزم أنّ الأجسام لا تنعدم، ليتم له الفرق بين النشأة الثانية، وإنما هي على هذا التقرير جمع وتأليف لموجود، وبين = النشأة الأولى التي هي إيجاد معدوم، فتنبه لبعد غوره، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار، والله وليّ التوفيق. ومعنى تفريق الله تعالى بين النشأتين، أن الجاحد متهافت؛ لأنه اعترف بالأولى، وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل، وأنكر الثانية، وهي أسهل وأهون؛ لأنّ ذلك راجع إلى قدرته تعالى، فإنّ الكل، لدى قدرة الله تعالى، هين على سواء.

(2) سورة الروم، الآية: 27.

(3) سورة الذاريات، الآية: 23.

(4) قال أحمد: التبست عليه إرادة العموم، وبينهما بون، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرّز والصون، فصرح بأنّ الله تعالى أراد بالإنسان: العموم، ومعنى إرادة العموم: أن يريد الله تعالى نسبة كلمة الشك والكفر، إلى كل فرد من أفراد الإنسان، ومعاذ الله، وقد صرح الزمخشري بأن النطق بكلمة الشك بعض الجنس، ففي العبارة خلل كما ترى، والعبارة الصحيحة أن يقال: يحتمل أن يكون التعريف جنسياً، فيكون عهدياً، فيكون اللفظ من أوّل وهلة خاصاً، والله أعلم.

(5) سورة الجاثية، الآية: 28. =

الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا﴾[1] يريد نمتاز من كل طائفة من طوائف الغيّ والفساد أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم، أو أراد ﴿**بالذين هم أولى بها صليًا**﴾ المنتزعين كما هم كأنه قال: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصلي من بين سائر الصالين ودركاتهم أسفل وعذابهم أشدّ، ويجوز أن يريد: بأشدّهم عتيًا رؤساء الشيع وأئمتهم لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالاً ومضلين قال الله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾[2] ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[3] واختلف في إعراب ﴿**أيهم أشدّ**﴾ فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقدير: لننزعنّ الذين يقال فيهم أيهم أشدّ، وسيبويه: على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته حتى لو جيء به لأعرب، وقيل: أيهم هو أشد، ويجوز أن يكون النزع واقعًا على من كل شيعة، كقوله سبحانه: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾[4] أي: لتنزعن بعض كل شيعة، فكأن قائلاً قال: من هم؟ فقيل: أيهم أشد عتيًا، وأيهم أشد النصب. عن طلحة بن مصرف، وعن معاذ ابن مسلم الهراء أستاذ الفراء.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق على والباء فإنّ تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه؟ **قُلْتُ**: هما: للبيان لا للصلة، أو يتعلقان بافعل أي: عتوهم أشد على الرحمن، وصليهم أولى بالنار، كقولهم: هو أشد على خصمه، وهو: أولى بكذا.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

﴿**وإن منكم**﴾[5] التفات إلى الإنسان يعضده قراءة ابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهما: وإن منهم، أو خطاب للناس من غير التفات إلى المذكور، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود: دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، عن ابن عباس رضي الله عنه يردونها كأنها إهالة، وروي: دواية: وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «إذا دخل أهل الجنة، قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي جامدة»[6] وعنه رضي الله عنه أنه سئل: عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إنّ للنار ضجيجًا من بردها»[7]. وأما قوله تعالى: ﴿أولئك عنها مبعدون﴾[8] فالمراد: عن عذابها. وعن ابن مسعود، والحسن، وقتادة، هو: الجواز على الصراط؛ لأنّ الصراط ممدود عليها، وعن ابن عباس: قد يرد الشيء ولا يدخله، كقوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾[9] ووردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو: مس الحمى جسده في الدنيا؛ لقوله عليه السلام: «الحمى من فيح جهنم»[10]. وفي الحديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[11]. ويجوز أن يراد بالورود: جثوهم حولها، وإن أريد بالكفار خاصة فالمعنى بين. الحتم: مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمي به الموجب، كقولهم: خلق الله، وضرب الأمير أي: كان ورودهم واجبًا على الله أوجبه على نفسه، وقضى به، وعزم على أن لا يكون غيره.

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾.

قرئ: ﴿**ننجي**﴾ وننجي وينجي وينجي على ما لم يسم فاعله: إن أريد الجنس بأسره فهو ظاهر، وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى: ثم ننجي ﴿**الذين اتقوا**﴾ إنّ المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار لا أنهم يواردونهم ثم يتخلصون، وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، والجحدري، وابن أبي ليلى: ثم ننجي بفتح الثاء أي: وقوله ﴿**ونذر الظالمين فيها جثيًا**﴾ دليل على أنّ المراد بالورود: الجثو حواليها، وأنّ المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾.

﴿**بينات**﴾ مرتلات الألفاظ ملخصات المعاني مبينات المقاصد إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 159.
(2) سورة النحل، الآية: 88.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 13.
(4) سورة مريم، الآية: 50.
(5) قال أحمد: احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول، فيكون المخاطبون أوّلاً هم المخاطبين ثانياً، إلا أنّ الخطاب الأوّل بلفظ الغيبة، والثاني بلفظ الحضور، وأما إذا بنينا على أنّ الأوّل، إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعاً، فالثاني ليس التفاتاً، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص، لقوم معينين، والله أعلم.
(6) قال الزيلعي: غريب ولم أجده إلا من قول خالد بن معدان 2/332.
(7) رواه أحمد في مسنده 3/429، والبيهقي في شعب الإيمان، باب= في أن دار المؤمنين الجنة ودار الكافرين النار، (الحديث رقم: 370) والحاكم في المستدرك 4/587.
(8) سورة الأنبياء، الآية: 101.
(9) سورة القصص، الآية: 23.
(10) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب صفة النار (الحديث رقم: 3263) ومسلم في كتاب: السلام، باب: لكل داء دواء (الحديث رقم: 5769).
(11) كشف الأستار، كتاب: الجنائز، باب: حظ ذنوب المريض، (الحديث رقم: 760) وابن ماجه: في كتاب: الطب باب: الحمى (الحديث رقم: 3470) والحاكم في المستدرك 1/345، وأحمد في مسنده 5/252.

بالمحكمات، أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها، أو حججاً وبراهين، والوجه: أن تكون حالاً مؤكدة كقوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقًا﴾[1] لأنّ آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججًا ﴿للذين آمنوا﴾ يحتمل أنهم يناطقون المؤمنين بذلك ويواجهونهم به وأنهم يفوهون به لأجلهم وفي معناهم كقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾[2]. قرأ ابن كثير ﴿مقامًا﴾ بالضم وهو: موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو: موضع القيام، والمراد المكان والموضع، والندى: المجلس ومجتمع القوم وحيث ينتدون والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أي الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظًا من الدنيا، حتى يجعل ذلك عيارًا على الفضل والنقص والرفعة والضعة. ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾.

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكنا﴾ و﴿من﴾ تبيين لإبهامها أي: كثيرًا من القرون أهلكنا، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم؛ لأنهم يتقدمونهم و﴿هم أحسن﴾ في محل النصب صفة لكم، ألا ترى أنك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية. الأثاث متاع البيت، وقيل: هو ماجد من الفرش، والخرثي: ما لبس منها، وأنشد الحسن بن علي الطوسي:

تقادم العهد من أم الوليد بنا دهرًا وصار أثاث البيت خرثيا

قرئ: على خمسة أوجه ﴿رئيا﴾ وهو: المنظر والهيئة فعل بمعنى: مفعول من رأيت، وريئًا: على القلب كقولهم: راء في رأي، وريا: على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الري الذي هو النعمة والترفه من قولهم: ريان من النعيم، وريا: على حذف الهمزة رأسًا ووجهه: أن يخفف المقلوب وهو: ريئا بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها، وزيا: واشتقاقه من الزيّ وهو الجمع؛ لأن الزيّ محاسن مجموعة، والمعنى: أحسن من هؤلاء.

قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾.

أي مدّ له الرحمٰن يعني: أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذانًا بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل لتقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أوَلم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾[3] وكقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا﴾[4] ﴿من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدًا﴾ في معنى: الدعاء بأن يمهله الله وينفس في مدّة حياته، في هذه الآية وجهان: أحدهما أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها، والآيتان اعتراض بينهما أي: قالوا: ﴿أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا﴾[5] ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ أي: لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿إما العذاب﴾ في الدنيا وهو: غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسرًا وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم، وإما يوم القيامة وهو: ما ينالهم من الخزي والنكال، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه وأنهم شر مكانًا وأضعف جندًا، لا خير مقامًا وأحسن نديًا. وأن المؤمنين على خلاف صفتهم. والثاني: أن تتصل بما يليها والمعنى: أن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم والخذلان لاصق بهم لعلم الله وبأن الألطاف لا تنفع فيهم وليسوا من أهلها، والمراد بالضلالة: ما دعاهم من جهلهم وغلوهم في كفرهم إلى القول الذي قالوه ولا ينفكون عن ضلالتهم إلى ما يعاينوا نصرة الله المؤمنين، أو يشاهدوا الساعة ومقدّماتها.

فإن قُلْتَ: ﴿حتى﴾ هذه ما هي؟ **قُلْتُ:** هي التي تحكي بعدها الجمل. ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله: ﴿إذا أرادوا ما يوعدون﴾ ﴿فسيعلمون من هو شر مكانًا وأضعف جندًا﴾ في مقابلة ﴿خير مقامًا وأحسن نديًا﴾[6] لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم، والندي المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم، وأنصارهم، والجند هم الأنصار والأعوان.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾.

﴿ويزيد﴾ معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة مدّ، أو يمدّ له الرحمن ويزيد أي: يزيد في ضلال الضال بخذلانه، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ﴿والباقيات الصالحات﴾ أعمال الآخرة كلها، وقيل: الصلوات وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أي: ﴿خير ثوابًا﴾ من مفاخرات الكفار ﴿وخير مردًا﴾ أي: مرجعًا وعاقبة، أو منفعة من قولهم:

ليس لهذا الأمر مردّ وهل يردّ بكاي زندًا

فإن قُلْتَ: كيف قيل: خير ثوابًا كان لمفاخراتهم ثوابًا

(1) سورة البقرة، الآية: 91.
(2) سورة الأحقاف، الآية: 11.
(3) سورة فاطر، الآية: 37.
(4) سورة آل عمران، الآية: 178.
(5) سورة مريم، الآية: 72.
(6) سورة مريم، الآية: 72.

حتى يجعل ثواب الصالحات خيرفا منه ﴿قلت﴾ كانه قيل: ثوابهم النار على طريقة قوله: فاعتبوا بالصليم، وقوله:

شجعاء جرّتها الزميل تلوكه أصلاً إذا راح المطي غرائا

وقوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

ثم بنى عليه خير ثوابًا وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار.

فإن قُلْتَ: فما وجه التفضيل في الخير كان لمفاخرهم شركًا فيه؟ **قُلْتُ:** هذا من وجيز كلامهم يقولون: الصيف أحرّ من الشتاء أي: أبلغ في حره من الشتاء في برده.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾.

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقًا إلى الإحاطة بها علمًا وصحة الخبر عنها، استعملوا أرأيت في معنى: أخبر، والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو: التعقيب كأنه قال: أيضًا بقصة هذا الكافر وانكر حديثه عقيب حديث أولئك ﴿أطلع الغيب﴾ من قولهم: أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه وطالع الثنية. قال جرير:

لاقيت مطلع الجبال وعورًا

ويقولون: مر مطلعًا لذلك الأمر أي: مالكًا له، ولاختيار هذه الكلمة شأن يقول، أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى غيب الذي توحد به الواحد القهار، والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين: وإما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟. قرأ حمزة والكسائي: ولدًا وهو: جمع ولد كأسد في أسد، أو بمعنى: الولد كالعرب في العرب، وعن يحيى بن يعمر: ولدًا بالكسر، وقيل في العهد: كلمة الشهادة، وعن قتادة: هل له عمل صالح قدّمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبي: هل عهد الله إليه أنه يؤتيه ذلك؟ عن الحسن رحمه الله: نزلت في الوليد بن المغيرة، والمشهور أنها في العاصي بن وائل. قال خباب بن الأرث: كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد، **قُلْتُ:** لا والله لا أكفر بمحمد حيًا ولا ميتًا ولا حين تبعث. قال: فإني إذا مت بعثت؟ قلت: ثم، قال: إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك، وقيل: صاغ له خباب حليًا فاقتضاه الأجر، فقال: أنكم تزعمون تبعثون، وأن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا فأنا اقتضيك، ثم فإني أوتى مالاً وولدًا حينئذ[1].

كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾.

﴿كلا﴾ ردع وتنبيه على الخطأ أي: هو مخطئ فيما يصوّره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه.

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿سنكتب﴾ بسين التسويف، وهو كما قال. كتب من غير تأخير، قال الله تعالى:﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[2] **قُلْتُ:** فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قوله:

إذا ما انتسبنا تلدني لئيمة

أي: تبين وعلم بالانتساب أني لست بابن لئيمة. والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك يعني: أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأجر، فجرّد ههنا لمعنى الوعيد ﴿ونمدّ له من العذاب مدًا﴾ أي: نطوّل له من العذاب ما يستأهله، ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزؤن، أو نزيده من العذاب، ونضاعف له من المدد. يقال: مدّه وأمدّه بمعنى، وتدل عليه قراءة عليّ بن أبي طالب: ونمدّ له بالضم، وأكد ذلك بالمصدر، وذلك من فرط غضب الله، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه.

وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾.

﴿ونرثه ما يقول﴾ أي: نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة، ونعطيه من يستحقه، والمعنى: مسمى ما يقول ومعنى ما يقول: وهو المال والولد. يقول الرجل: أنا أملك كذا، فتقول له: ولي فوق ما تقول. ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله في الدنيا مالاً وولدًا وبلغت به أشعبيته أن تألى على ذلك في قوله: ﴿لأوتين﴾[3] لأنه جواب قسم مضمر ومن يتأل على الله يكذبه، فيقول الله عزّ وجل هب أنا أعطيناه ما اشتهاه إما نرثه منه في العاقبة ﴿وياتينا فردًا﴾ غدًا بلا مال ولا ولد كقوله عزّ وجل: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾[4] الآية فما يجدي عليه تمنيه وتأليه، ويحتمل أن هذا القول إنما يقوله ما دام حيًا فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله، ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه غير قائل له، أو لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به ﴿وياتينا﴾ على فقره ومسكنه ﴿فردًا﴾ من المال والولد لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه، فيجتمع عليه الخطبان تبعة قوله ووباله. وفقد المطموع فيه ﴿فردًا﴾ على الوجه الأوّل حال مقدرة نحو: ﴿فادخلوها خالدين﴾[5] لأنه وغيره سواء في إتيانه فردًا حين يأتي، ثم يتفاوتون بعد ذلك أي: ليتعززوا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارًا ينقذونهم من العذاب.

---

(1) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «أفرأيت الذي كفر بآياتنا...» (الحديث رقم: 4732) وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (الحديث رقم: 6993).

(2) سورة قّ، الآية: 18.

(3) سورة مريم، الآية: 77.

(4) سورة الأنعام، الآية: 94.

(5) سورة الزمر، الآية: 73.

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾.

﴿كلا﴾ ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة، وقرأ ابن نهيك: كلا ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أن سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم كقولك: زيدًا مررت بغلامه، وفي محتسب ابن جني: كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه: كل هذا الرأي والاعتقاد كلا، ولقائل أن يقول: إن صحت هذه الرواية فهي كلا التي هي للردع قلب الواقف عليها ألفها نونًا كما في ﴿قواريرا﴾[1] والضمير في سيكفرون للآلهة أي: سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون: والله ما عبدتمونا، وأنتم كاذبون. قال الله تعالىٰ: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾[2] أو المشركين أي: ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها. قال الله تعالىٰ: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾[3] ﴿عليهم ضدًا﴾ في مقابلة ﴿لهم عزًا﴾[4] والمراد: ضدّ العز وهو الذل والهوان أي: يكونون عليهم ضدًا لما قصدوه وأرادوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلاً لا لهم عزًا، أو يكونون عليهم عونًا، والضد العون يقال: من أضدادكم أي: أعوانكم، وكأن العون سمي: ضداً؛ لأنه يضاد عدوّك وينافيه بإعانته لك عليه.

فإن قُلْتَ: لم وحد؟ **قُلْتُ:** وحد توحيده قوله عليه السلام: «وهم يد على من سواهم»[5]. لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عونًا عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم؛ ولأنهم عنبوا بسبب عبادتها. وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين، فإنّ المعنى: ويكونون عليهم أي: أعداءهم ضدًا أي: كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾.

الأز والهزّ والاستفزاز أخوات، ومعناها: التهييج وشدّة الإزعاج أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوسواس والتسويلات والمعنى، خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرًا. والمراد: تعجيب رسول الله ﷺ بعد الآيات التي ذكر فيها العناة والمردة من الكفار، وأقاويلهم وملاحتهم ومعاندتهم للرسل واستهزاؤهم بالدين، من تماديهم في الغي وإفراطهم في العناد وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه، وإنهما كهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾.

عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه أي: لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم وتطهر الأرض بقطع دابرهم، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة، كأنها في سرعة نقضيها الساعة التي تعد فيها لوعدت، ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾[6] وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك، وعن ابن السماك: أنه كان عند المأمون فقرأها: فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾.

نصب ﴿يوم﴾ بمضمر أي: يوم ﴿نحشر﴾ ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف، أو أنذر يوم نحشر، ويجوز أن ينتصب بلا يملكون. ذكر المتقون بلفظ التبجيل، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته، كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم، وعن عليّ رضي الله عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكنهم على نوق رجالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت[7]. وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء. والورد لعطاش؛ لأنّ من يرد الماء لا يرده إلا لعطش، وحقيقة الورد المسير إلى الماء قال:

ردي ردي ورد قطاة صما كدرية أعجبها بردًا لما

فسمى به الواردين، وقرأ الحسن: يحشر المتقون ويساق المجرمون.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾.

الواو[8] في ﴿لا يملكون﴾ إن جعل ضميرًا فهو للعباد

---

(1) سورة الإنسان، الآيتان: 15 و16.

(2) سورة النحل، الآية: 86.

(3) سورة الأنعام، الآية: 23.

(4) سورة مريم، الآية: 81.

(5) رواه أحمد في مسنده 1/122، وأبو داود في كتاب: الديات، باب: إيقاد المسلم (الحديث رقم: 4530) والنسائي في كتاب: القسامة، باب: سقوط القود من المسلم للكافر، (الحديث رقم: 4745).

(6) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(7) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على المسند ص 359= = (الحديث رقم: 153) وهو في المسند 1/155.

(8) قال أحمد: وفي هذا الوجه تعسف، من حيث أنه إذا جعله علامة، لمن فقد كشف معناه، وأفصح بأنها متناولة جمعاً، ثم أعاد على لفظها بالإفراد، ضمير اتخذ، ففيه الإعادة على معناه بما يخالف ذلك، وهو مستنكر عندهم؛ لأنه إجمال بعد إيضاح، وذلك تعكيس في طريق البلاغة، وإنما محجتها الواضحة: الإيضاح بعد الإجمال، والواو على إعرابه، وإن لم تكن عائدة على من، إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له، فتنبه لهذا العقد، فإنه أروج من النقد. وفي عنق الحسناء، يستحسن العقد.

ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة، ويجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في أكلوني البراغيث والفاعل من اتخذ؛ لأنه في معنى الجمع، ومحل من اتخذ رفع على البدل، أو على الفاعلية، ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف أي: إلا شفاعة من اتخذ، والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم.

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾.

واتخاذ العهد الاستظهار بالإيمان والعمل، وعن ابن مسعود أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدهكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدًا؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يقول كل صباح ومساء: «اللهم فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إلٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمدًا عبدك ورسولك، وأنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وأني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا توفنيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة»[1]، وقيل: كلمة الشهادة، أويكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمر به أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها وتعضده مواضع في التنزيل: ﴿وكم من ملك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾[2] ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾[3] ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولا﴾[4].

لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾.

قرئ: ﴿إِدًّا﴾ بالكسر والفتح. قال ابن خالويه: الإدّ والأد: العجب، وقيل: العظيم المنكر، والإدة: الشدّة، وأدني الأمر وأدني أثقلني وعظم عليّ إدًا.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾.

﴿يكاد﴾ قراءة الكسائي، ونافع بالياء. وقرئ: ﴿ينفطرن﴾ الانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر من فطره إذا شققه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود: ينصدعن أي: تهد هدًا أو مهدودة أو مفعول له أي، لأنها تهد.

فإن قُلْتَ[5]: ما معنى انفطار السمٰوات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ **قُلْتُ**: فيه وجهان: أحدهما أنّ الله سبحانه يقول: كدت أفعل هدًا بالسمٰوات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبًا مني على من تفوه بها لولا حلمي ووقاري، وإني لا عجل بالعقوبة كما قال: ﴿إنّ الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورا﴾[6] والثاني: أن يكون استعظامًا للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويرًا لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده، وأنّ مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخرّ، وفي قوله: ﴿لقد جئتم﴾ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة، زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله والتعرّض لسخطه وتنبيه على عظم ما قالوا.

أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾.

في ﴿أن دعوا﴾ ثلاثة أوجه: أن يكون مجرورًا بدلاً من الهاء في منه كقوله:

على حالة لو أن في القوم حاتمًا ... على وجوده لضنّ بالماء حاتم

ومنصوبًا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل أي: هذا لأن دعوا، علل الخرور بالهد والهد بدعاء الولد الرحمٰن، ومرفوعًا بأنه فاعل هدًا أي: هدّ دعاء الولد للرحمٰن، وفي اختصاص الرحمٰن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمٰن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، من قبل أنّ أصول النعم وفروعها منه: خلق العالمين وخلق لهم جميع ما معهم، كما قال بعضهم: فلينكشف عن بصرك غطاؤه فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولدًا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمٰن. هو من دعا بمعنى: سمى المتعدي إلى مفعولين فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلبًا للعموم والإحاطة بكل ما دعي له ولدًا، أو من دعا بمعنى: نسب الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام: «من ادعي إلى غير مواليه»[7] وقول الشاعر:

إنا بني نهشل لا ندعي لأب

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/377.

(2) سورة النجم، الآية: 26.

(3) سورة سبأ، الآية: 23.

(4) سورة طه، الآية: 109.

(5) قال أحمد: ويظهر لي وراءها معنى آخر، والله أعلم، وذلك أن الله تعالى قد استعار، لدلالتها على وجوده عزّ وجل، موصوفاً بصفات الكمال الواجبة له، أن جعلها تسبح بحمده، قال تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾، ومما دلت عليه السموات والأرض والجبال بل وكل ذرّة من ذرّاتها، أن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه، وفي كل شيء = له آية تدل على أنه واحد، فالمعتقد نسبة الولد إلى الله تعالى، قد عطل دلالة هذه الموجودات، على تنزيه الله وتقديسه، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة، التي خلقت لأجلها إبطال صورها بالهد، والانفطار، والانشقاق، فسبحان من قسم عباده، فجعل العباد تستلذ، فتسبح بتسبيح داود، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التوفيق، مطرود مردود.

(6) سورة فاطر، الآية: 41.

(7) رواه مسلم في صحيحه، بلفظ من «ادعى» كتاب الحج، باب: فضل المدينة... (الحديث 3314).

أي: لا ننتسب إليه. أنبغي مطاوع بغي: إذا طلب أي: ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلاً؛ لأنه محال غير داخل تحت الصحة، أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها، وأما التبني فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبني وليس للقديم سبحانه جنس تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾.

﴿من﴾ موصوفة؛ لأنها وقعت بعد كل نكرة وقوعها بعد رب في قوله:

رب من أنضجت غيظًا صدره

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة ﴿آت الرحمٰن﴾ على أصله قبل الإضافة. الإحصاء الحصر والضبط يعني: حصرهم بعلمه وأحاط بهم ﴿وعدّهم عدًا﴾ الذين اعتقدوا في الملائكة وعيسى وعزير أنهم أولاد الله كانوا بين كفرين: أحدهم: القول بأن الرحمٰن يصح أن يكون والدًا، والثاني: إشراك الذين زعموهم لله أولادًا في عبادته كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم، فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ثم عقبه بهدم الكفر الآخر، والمعنى: ما من معبود لهم في السمٰوات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي بالرحمٰن أي: تأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدًا منقادًا مطيعًا خاشعًا خاشيًا راجيًا كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم، لا يدعي لنفسه ما يدّعيه له هؤلاء الضلال، ونحوه قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾[1] وكلهم منقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم، ويجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم، لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردًا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم. قرأ جناح بن حبيش.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾.

﴿ودا﴾ بالكسر والمعنى: سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الودّ ويكتسب بها الناس مودّات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصًا منه لأوليائه بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة أعظامًا لهم وإجلالاً لمكانهم. والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم. وروي أنّ النبي ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه: «يا عليّ قل اللهم اجعل لي عندك عهدًا، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة»[2]. فأنزل الله هذه الآية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يعني: يحببهم الله ويحببهم إلى خلقه، وعن رسول الله ﷺ يقول الله عزّ وجل: «يا جبريل قد احببت فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إنّ الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له المحبة في أهل الأرض»[3]. وعن قتادة: ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾.

هذه خاتمة السورة ومقطعها فكأنه قال: بلغ هذا المنزل، أو بشربه، وأنذر فإنما أنزلناه ﴿بلسانك﴾ أي: بلغتك وهو: اللسان العربي المبين وسهلناه وفصلناه ﴿لتبشر به﴾ وتنذر.

واللد: الشداد الخصومة بالباطل الآخذون في كل لديد أي: في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم يريد: أهل مكة. وقوله ﴿وكم أهلكنا﴾ تخويف لهم. وإنذار. وقرئ ﴿تحس﴾ من حسه إذا شعر به، ومنه: الحواس والمحسوسات. وقرأ حنظلة ﴿تسمع﴾ مضارع أسمعت. والركز: الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز المال المدفون.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به، ويحيى، ومريم، وعيسى، وإبراهيم، وإسحٰق، ويعقوب، وموسى، وهٰرون، وإسمعيل، وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله في الدنيا، وبعدد من لم يدع الله[4].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 57.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره. (الزيلعي 2/341).

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (الحديث = رقم: 3209) ومسلم في كتاب: البر والصلة باب: إذا أحب الله عبدًا، (الحديث رقم: 6647).

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره (الزيلعي 2/343).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة طه مكية

طه ﴿١﴾.

﴿طه﴾ أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء، وفخمهما ابن كثير، وابن عامر على الأصل، والباقون أمالوهما، وعن الحسن رضي الله عنه: طه وفسر بأنه أمر بالوطء وأنّ النبي ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه. معًا، وأنّ الأصل طأ فقلبت همزته هاء[1]، أو قلبت ألفًا في يطأ فيمن قال: لا هناك المرتع، ثم بني عليه الأمر، والهاء للسكت، ويجوز أن يكتفي بشطري الأسمين، وهما الدالان بلفظهما على المسميين، والله أعلم بصحة ما يقال: إن طاها في لغة عك في معنى: يا رجل، ولعل عك تصرفوا في يا هذا كانهم في لغتهم قالبون الياء طاء فقالوا في ياطا واختصروا هذا فاقتصروا على ها وأثر الصنعة ظاهر لا يخفي في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طاها في خلائقكم ... لا قدّس الله أخلاق الملاعين

والاقوال الثلاثة في الفواتح أعني التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل هي التي يعول عليها الألباء المتقنون.

مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾.

﴿ما أنزلنا﴾ إن جعلت طه تعديد الأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسمًا للسورة احتملت أن تكون خبرًا عنها وهي في موضع المبتدأ و﴿القرآن﴾ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن، وأن يكون جوابًا لها وهي قسم، وقرئ ما نزل عليك القرآن ﴿لتشقى﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك﴾[2] والشقاء يجيء في معنى: التعب، ومنه المثل: أشقى من رائض مهر، أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنكر ولم يكتب عليك أنّ يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له: إنك شقي لأنك تركت دين آبائك، فأريد رد ذلك: بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب في درك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وروي: أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإنّ لها عليك حقًا[3]، أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة، وكل واحد من لتشقى وتذكرة علة للفعل إلا أن الأوّل وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشرائط.

فإن قُلْتَ: أما يجوز أن تقول ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى كقوله تعالى: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾[4] **قُلْتُ:** بلى ولكنها نصبه طارئة كالنصبة في: ﴿واختار موسى قومه﴾[5] وأمّا النصبة في تذكرة فهي كالتي في: ضربت زيدًا؛ لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿تذكرة﴾ بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾؟ **قُلْتُ:** لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى: لكن، ويحتمل أن يكون المعنى[6]: إنا أنزلناه عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقابلتهم، وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة على هذا الوجه، يجوز أن يكون تذكرة حالاً ومفعولاً له ﴿لمن يخشى﴾ لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيمانًا وبالقسوة خشية.

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾.

في نصب ﴿تنزيلاً﴾ وجوه أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له؛ لأنّ الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمرًا، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة، أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين، وقرئ: تنزيل بالرفع على خبر مبتدأ محذوف. ما بعد تنزيلاً إلى قوله: ﴿له الأسماء الحسنى﴾[7] تعظيم

---

(1) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة طه (الحديث رقم: 2232)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ. فصل في براءته ﷺ في النبوّة (الحديث رقم: 1497).

(2) سورة الكهف، الآية: 6.

(3) رواه البيهقي في كتاب: الدعوات الكبير، (الزيلعي 2/348).

(4) سورة الحجرات، الآية: 2.

(5) سورة الأعراف، الآية: 155.

(6) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني بعد، فإن فيه إثبات كون الشقاء سبباً في نزوله، عكس الأوّل، وإن لم تكن اللام سببية، فكانت= للصيرورة مثلاً، ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ، من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم، وضيق الصدر بهم، وكان مضمون هذه الآية متبايناً عن قوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ وأمثاله كثيرة، فالظاهر، والله أعلم، هو التأويل الأوّل.

(7) سورة طه، الآية: 8.